الجامعة الإسلامية العالمية شيتاغونغ
ISSN 1813-7733
المجلد الثامن ديسمبر ٢٠١١م (ص ١٣٩-١٥٢)

موقف مصطفى صادق الرافعي من الأدب العربي الحديث

محمد محمود الحسن*

ملخص البحث : مصطفى صادق الرافعي (١٨٨٠م- ١٩٣٧م) اسم مشهور في تاريخ الأدب العربي وكوكب لامع في سماء الأدب العربي الحديث . إنه في بداية حياته كان منصرفا إلى الشعر ، فقرض أشعارا متنوعة في الغزل والوصف والأخلاق الإسلامية والنزعة الوطنية . وكان مشهورا في الأنشودة حيث لقب بشاعر الأناشيد فكان فيها شاعرا أميلَ إلى التراث في وسائل صياغته و طريقة تعبيره ، إلا أنه لم يكن يعجبه التقليد في الوزن والقافية . وقام بدور بارز في النثر، حيث ألف كثيرا من الكتب القيمة وتحدث فيه عن الأدب وما يتعلق به من الأمور الناجعة ، يجد فيه كل طالب بغيته من العلم والأدب والبيان الرفيع. وأجاد الرافعي في كتابة النثر المشعور ، فكتب عدة كتب في هذا الحقل وأورد فيها عبارات عالية وفنية بارعة وأشعار مناسبة ، كأن كله ثروة من اللغة، وخزينة من التعبير الجميل ، ومادة لتوليد المعاني وتشقيق الكلام في لفظ جزل . وقد لعب دورا فعالا في النقد ، فنقد المعاني والألفاظ من ناحية مستوى التاليف والابتكار، وانتقد تكرار القبيح في الألفاظ والمعاني . فيهدف هذا البحث إلى مناقشة موقف هذا الأديب الأريب من الأدب العربي الحديث ، و يُتبع فيه المنهج الوصفي الاستقرائي.

مقدمة

إن الأدب مرآة شفافة ، ينعكس فيها واقع الحياة ، وهو من الفنون الرائعة التي ترتاح بها النفوس وتنجذب إليها القلوب ، فتربع عليه الناس منذ القدم ، وقد تناوله الأدباء بالممارسة عبر العصور التاريخية ، فقدموا إليه كتبا قيمة وآثارا خالدة ، وزينوا ساحته ببذل جهودهم البالغة وخدماتهم الجليلة . ومن أولئك الأدباء الأعلام مصطفى صادق الرافعي (١٨٨٠م- ١٩٣٧م). إنه قد لازم الأدباء المعاصرين البارزين أمثال الشيخ اليازجي، و الشيخ محمد عبده ، والبارودي ، والكاظمي ، والزعيم مصطفى كامل[١]، ونافس شعراء عصره أمثال أحمد شوقى (١٨٦٨م-١٩٣٢م)

---

* محاضرفي اللغة العربية، مركز مواد متطلبات الجامعة، الجامعة الإسلامية العالمية شيتاغونغ، بنغلاديش

وحافظ إبراهيم (١٨٧٢م–١٩٣٢م) وميخائيل نعيمة (١٨٨٩م–١٩٨٨م) وجبران خليل جبران (١٨٨٣م–١٩٣١م) ، فنبغ في الأدب العربي. و كان في بداية حياته منصرفا إلى الشعر وحده[٢] ، و كان شاعرا مطبوعا ، بدء قرض الشعر وهو في العشرين[٣] ، فحذق في هذا المجال ، و حاز شهرة كشاعر صاحب ديوان ، لكنه لم يستمر في هذا النطاق ، بل ينصرف عن الشعر إلى النثر ، وتميز في الديباجة والأسلوب والمنهج[٤] ، فطار ذكره عند الأدباء المعاصرين وذاعت سمعته لدى العلماء المسلمين حتى صار أديب الأمة العربية المسلمة و رائد الفكرة الإسلامية في الأدب العربي الحديث . ففي هذا المقال نحن نطلع على موقف هذا الكاتب البارع من الأدب العربي الحديث بالإيجاز. و ينقسم هذا المقال إلى المحاور الآتية :

المحور الأول : موقف الرافعي من الشعر العربي الحديث.

المحور الثاني: موقف الرافعي من النثر العربي الحديث.

المحور الثالث: موقف الرافعي من النقد الأدب العربي الحديث.

المحور الأول: موقف الرافعي من الشعر العربي الحديث

الشعر قول موزون مقفى يدل على معنى لما تشعر به النفس . وأجاد الرافعي في هذا الميدان ، فإنه أولع بالشعر من أول نشأته ، وكان يتطلع إلى أشعر شعراء عصره كما ذكرنا فيما أعلاه ، ويقرض الشعر بالمنافسة ، وكان شعره ينشر في الصحف و المجلات الأدبية كمجلة الضياء ، والبيان ، والثريا ، والزهراء ، والمقتطف وغيرها من المجلات المشهورة[٥]، حتى استطاع أن يصدر الجزء الأول من ديوانه سنة ١٩٠٢ م[٦] ، وقدم له بمقدمة بارعة تحدث فيها عن معنى الشعر وفنونه ، وقرض فيه من الأشعار بموضوعات شتى كالتهذيب والتربية ، والعلم والعمل ، والوطن والمديح والوصف والخمر والقمر والوردة وشبان اليوم والعزل والنسيب . ومن أحسن قصائد هذا الجزء من ديوانه قصيدة ، عنوانها "العلم والعمل"[٧] و يقول فيها :

آفة العالم أن لا يعملا – وشقا الجاهل أن لا يسألا

إنما العلم كمثل المال لا – تنفع الأموال حتى تبذلا

ولكل الناس فقر شامل – والغني فقره أن يبخلا

وأخو العلم كرب المال لا – يستزيد المال حتى يعملا

ونشر الجزء الثاني من ديوانه سنة ، ١٩٠٤م[٨] . وحشدت فيه أشعار بموضوعات مختلفة كالتعذيب والحكمة والفقير والغني والحرب والسلام ، والمال والعلم والدين وذكر أهلها ، وربة الحسن والقلم ، و المرأة المصرية ، والرجل عندنا والمرأة عندكم ، والشرقية والغربية . ومن نماذج شعر من هذا الجزء شعره بعنوان "الفقر والغني"[٩]:

لعمرك إنما الأموال حزن – فإن العمر ثوب مستعار
وما مات الغني بغير همّ – وأية حسرة هذا الخسار
كأن المال أقلام فمنها – بسفر العمر حذف واختصار
كأن خزانة الأموال قبر – ففي نفس الغني بها انكسار
ويا عجبا من الأقدار تجري – وبعد وقوع ما تجري تدار
رأيت الفقر للفقراء حظا – وفي أهل الغني لهم اعتبار

وطبع الجزء الثالث من ديوانه سنة ١٩٠٦ م[١٠] ، فكان معظم شعره يدور حول عاطفة الحب . وإلى جانب أخر أنه أصدر ديوانا سنة ١٩٠٨م ، وسماه "النظرات" ، وقد فسح للغزل في دواوينه كما فسح للتهاني و المراثي والمشاعر الوطنية والإسلامية وأحاسيس المرارة من حالة مصر الاجتماعية وقتئذ[١١]. وكان فيها شاعرا أميل إلى روح التراث في وسائل صياغته وطريقة تعبيره وتصوير خواطره .

وتفوق الرافعي في تاليف الأناشيد حيث أنه لقب بشاعرالأناشيد[١٢]. فقد غنى للإسلام والوطن والطفولة والشعب بشكل تام وكان يهتف أبناء المدارس بها كل صباح في مدارسهم ، وترددها المجموعة في الإذاعة والاحتفالات . ومن أجمل أناشيده الأناشيد الوطنية المصرية والإسلامية التالية :

النشيد بعنوان: "حماة الحمى" يقول فيه الشاعر :

حماة الحمى ، يا حماة الحمى – هلموا ، هلموا لمجد الزمن
لقد صرخت في العروق الدّما – نموت ، نموت ويحيا الوطن

١. النشيد الوطني المصري ،فهو صورة حية للشعور الوطني الذي ملك الروح المصرية ، و هو من ناحية أخرى موجز من مصر المنصرمة ، يحفز همة مصر المتحضرة ، فمطلعها [١٣]:

إلى العلا إلى العلا بني الوطن – إلى العلا كل فتاة وفتى

إلى العلا في كل عصر وزمن – فلن يموت مجدنا كلا ولا

٢. النشيد المعروف بنشيد مصر القومي الرسمي و كان ذلك من خلال الفترة سنة ١٩٢٣م إلى سنة ١٩٣٦م ، يقول فيه الشاعر:

اسلمي يا مصر إنني الفدا – ذي يدي إن مدت الدنيا يدا
أبدا لن تستكيني أبدا – ليتني أرجو مع اليوم غدا

٣. النشيد الإسلامي الخالد ، الذي اشتهر في كل بلاد العالم العربي حتى يومنا هذا بنشيد الشباب المحمدي .حيث يقول الشاعر :

ربنا إياك ندعو ربنـا – آتنا النصـر الذي وعدتنـا
إننا نبغي رضـاك إننا – ما ارتضينا غير ما ترضى لنا
أنفسا طاهرة طهر الحرم – ملأ التـاريخ مجدا وكـرم
وافيات بالعهود والـذمم – رافعات للمعـالي والهمـم

وله العديد من الأناشيد التي كتبها لطلاب المدارس مثل نشيد " بنت النيل" و"نشيد الطلبة" و"نشيد المدرسة" مضافا إليها الأناشيد التي كتبها لأطفاله فتبنتها رياض الأطفال والمدارس الابتدائية ، كما كتب أغاني للفلاحين .

هكذا خلد الرافعي اسمه في تاريخ مصر ، فدامت ذكرياته في صفحات التاريخ على مرور الأيام و السنين بين شعراء العربية ، واستطاع أن يجعل لشعره مكانة خاصة بين شعراء جيله البارزين حتى حظي عند هؤلاء الشعراء باحترام واعتراف ، حيث قال الشاعر محمود سامي البارودي[١٤] .

لمصطفى صادق في الشعر منزلة – أمسى يعاديه فيها من يصافيه
حاز الكمال فلم يحج لمنقبة – فلست تنعته إلا بما فيه

وأشاد بشعره الشاعر عبد المحسن الكاظمي وهو يقول[١٥] :

شعرك يا مصطفى لصافية – بحوره كل وردها عذب
إن تنتخب من سواك قافية – فذي قوافيك كلها نخب

وقال الشاعر حافظ إبراهيم[١٦] :

إيه يا رافعي أحسنت حتى – لا أرى محسنا بجنبك سيّا

إذا نحن نلتفت أنظارنا إلى شعر الرافعي نجد أنه قد جمع فيه الأساليب القديمة و النزعة الحديثة ، فإنه اقتفى القدماء في التشبيه و المجاز و الوصف ، لكن موقفه كان ضد قيود الشعر التقليدية ، فدعا إلى تحرير الشعر العربي جزئيا أو كليا من الوزن و القافية . و اعتنى اعتناء شديدا بانتقاء الألفاظ فلا يوجد في شعره لفظة وحشية ، بل يمتاز شعره على الاطلاق برشاقة اللفظ و سهولته وعذوبته ، ووضوح المعنى ، وحسن النظم ، وقلة التكلف .

المحور الثاني: موقف الرافعي من النثر العربي الحديث:

النثر أسلوب في التعبير غير موزون ، فالرافعي فيه كوكب لامع ، يلمع الأدب العربي الحديث ، وكان أسلوبه في النثر قريب الشبه بأسلوب أبي تمام في الشعر[١٧] ، تتزاحم فيه الاستعارات و المجازات والكنايات و التشبيهات ، لكن بحدّة وطرافة وإبداع في كثير من الأحيان . وكان يستخدم أحيانا في كتابته لفظة أو عبارة من القرآن الكريم أو كلمة أو جملة من الحديث الشريف أو حكمة أو مثلا أو بيت شعر من مأثورات العرب[١٨]. وقد ساق قلمه في كتابته إلى سبيل الحفاظ على اللغة العربية والتراث الإسلامي وحبه الوطني المصري[١٩] . ومآثره في هذا الحقل هي:

١. **تاريخ آداب العرب:** هذا الكتاب في ثلاثة أجزاء ، فالجزء الأول منه نشر سنة ١٩١١ الميلادية ، اختار فيه الرافعي أسلوب الأدباء الماهرين ، يجد فيه كل طالب طلبته من العلم و الأدب والبيان الرفيع ، فإنه تحدث فيه عن الأدب وفنونه وعلمه وحرفته واللغات العربية وأسواق العرب والأسباب اللسانية وعن الرواية والرواة وتاريخ الإسناد وغيرها من الموضوعات

المتعلقة بالأدب العربي . فقد قال الأديب محمد سعيد العريان في صدد هذا الجزء ،" وأنا قد قرأت الجزء الأول من كتاب "تاريخ آداب العرب" منذ بضع عشرة سنة ، وألمت منه بما ألمت ، واهتديت به ما اهتديت ، ثم عدت إلى نفسي أسئلها : أين ومتى اجتمع لمؤلفه هذا القدر من المعارف في شؤون العرب و العربية فألف بين أشتاتها في هذا الكتاب ؟"[٢٠].

ونشر الجزء الثاني منه سنة ١٩١٢ الميلادية ، وقد قصره الكاتب على إعجاز القرآن والبلاغة النبوية وقد طبعه فيما بعد مستقلا باسم "إعجاز القرآن والبلاغة النبوية "[٢١]. وطبع الجزء الثالث بعد وفاة الرافعي بتحقيق محمد سعيد العريان سنة ١٩٤٥ الميلادية فقد تحدث فيه الرافعي عن تاريخ الشعر العربي ومذاهبه وفنونه والفنون المستحدثة منه و تنوعه ، وعن حقيقة القصائد "المعلقات " ودرس شعرائها وعن أدب الأندلس إلى سقوطها ومصرع العربية فيها وعن الصناعات اللفظية التي أولع بها المتأخرون في النظم والنثر وتاريخ أنواعها وغيرها من الموضوعات المهمة للأدب العربي . فقد قال محمد سعيد العريان في مقدمة طبعته الأولى ،" أما بعد ، فهذا كتاب جدبد قديم أحسب أن قراء العربية كانوا في شوق إليه ، فلعلهم إذ يقرئونه يجدون فيه — على قدمه — جديدا كانوا يتشوفون إليه ؛ فيذكرون مؤلفه بما بذل للعربية حيا وميتا ؛ فيدعون له دعوة ترطب ثراه ، وتكون له شفاعة عند الله"[٢٢].

٢. وحي القلم : هذا الكتاب في ثلاثة أجزاء ، وهو مجموعة مقالاته التي كتبها ما بين ١٩٣٤م – ١٩٣٧م [٢٣]، ونشرت في المجلات المختلفة كرسالة القاهرة ، والمؤيد . وطبع الجزءان منه في حياته . وأورد فيهما مقالات إسلامية واجتماعية وسياسية متنوعة بعبارات واضحة و أساليب متميزة رافعة ، فمن أهم مقالاته التي يحتويها الجزء الأول "البيان" واليمامتان، واجتلاء العيد والربيع والطفولتان . ويتضمن الجزء الثاني منه كثيرا من المقالات الاجتماعية والسياسية ، أهمها : الإشراق الإلاهي، وحقيقة المسلم ، والانسانية العليا ، وسمو الفقر في المصلح الاجتماعي الأعظم ، ودرس من النبوة ، ووحي القبور ، وفي محنة فلسطين ، والطماطم السياسي، وحماسة الشعب . أما الجزء الثالث منه فقد جمعه سعيد العريان من قصصات في مكتبته مما نشر وما لم ينشر في الصحف والمجلات، فرتبها وأصدر سنة ١٩٤٢الميلادية[٢٤] . ويشتمل على عدة مقالات إسلامية وسياسية ، أجملها : السمو الروحي الأعظم والجمال الفني في البلاغة النبوية ، وقرآن الفجر ، واللغة و الدين والعادات باعتبارها في مقومات الاستقلال ، و تحديد الإسلام ، وقنبلة

بالبارود لا بالماء المقطر ، والأدب والأديب . فيجمع هذا الكتاب أكثر من خصائص الرافعي الأدبية حتى أشاد به الأديب محمد عبده و يقول :" ولدنا الأديب الفاضل مصطفى أفندي صادق الرافعي : زاده الله أدبا . لله ما أثمر أدبك ، ولله ما ضمن لي قلبك ، لا أقارضك ثناء بثناء ، فليس ذلك شأن الأباء مع الأبناء ، ولكني أعدك من خلص الأولياء ، وأقدم صفك على صف الأقرباء . و أسأل الله أن يجعل للحق من لسانك سيفا يمحق الباطل ، وأن يقيمك في الأواخر مقام حسان في الأوائل"[٢٥] .

٣. **إعجاز القرآن والبلاغة النبوية** : هذا الكتاب في الأصل هو الجزء الثاني من كتاب الرافعي " تاريخ آداب العرب" وطبع أولا باسم "إعجازالقرآن والبلاغة النبوية " سنة ١٩٢٨ الميلادية ، فاستقبله استقبالا حارا من صفوة الأدباء والعلماء ، إلا عدد قليل من المنكرين أمثال طه حسين (١٨٨٩م–١٩٧٣م) و العقاد (١٨٨٩م –١٩٦٤ م) ، كما أشاد به سعد باشا زغلول (١٨٥٦م–١٩٢٧م) : "فجاء كتابكم إعجاز القرآن مصدقا لآياته ، مكذبا لإنكارهم ، وأيد بلاغة القرآ ن وإعجازها بأدلة مشتقة من أسرارها ، في بيان مستمد من روحها ، كأنه تنزيل من التنزيل ، أو قبس من نور الذكر الحكيم"[٢٦]. وقد أورد فيه الرافعي فصولا في إعجاز القرآن فتحدث عن معنى الإعجاز وحقيقته ومذاهب القدماء فيه ، وعن تاريخ جمع القران وتدوينه ، وأسلوبه ونظمه وإعجاز تاليفه ، وتركيب الجمل وإعجازه ، و قراءته وقرائه ، وتأثيره في اللغة وغيرها من الموضوعات التي تتعلق باللغة العربية والعلوم الحديثة . يقول الرافعي بصدد مفهومه للإعجاز "وإنما الإعجاز شيئان : ضعف القدرة الإنسانية في محاولة المعجزة ومزاولته على شدة الإنسان واتصال عنايته ، ثم استمرار هذا الضعف على تراخي الزمن وتقدمه ، فكأن العالم كله في العجز إنسان واحد ليس له غير مدته المحدودة بالغة ما بلغت"[٢٧] .

ثم انتقل إلى الحديث عن البلاغة النبويه فأوضح عن البلاغة الإنسانية وفصاحة النبي – صلى الله عليه وسلم — وأسلوب كلامه وإحكام منطقه واجتماع كلامه وقلته وتأثيره في اللغة ، ونفي الشعر عنه . فيقول في بيان فصاحة النبي — صلى الله عليه وسلم — : " أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — كان أفصح العرب ، على أنه لا يتكلف القول ، ولا يقصد إلى تزيينه ، ولا يبغي إليه وسيله من وسائل الصنعة ، ولا يجاوز به مقدار الإبلاغ في المعنى الذي يريده ، وإن كان كلامه — صلى الله عليه وسلم– لكما قال الجاحظ : "هو الكلام الذي قل عدد حروفه ،

وكثر عدد معانيه ، وجل عن الصنعة ، ونزه عن التكلف استعمل المبسوط في موضع البسط ؛ والمقصور في موضع القصر ، وهجر الغريب الوحشي ،"[٢٨].

٤. **الإسلام انطلاق لا جمود** : يحتوي هذا الكتاب أشياء تتعلق بالإسلام كأنه يعد أشبه كتب إسلامية ، فتحدث عن أمور راهنة متعددة بعناوين متنوعة في عبارات عذبة من سلاسة الألفاظ ، كالإسلام عبر العصور والحريات العامة ، والمجتمع المثالي ، والديمقراطية المفقودة ، والإشتراكية الإسلامية ، وبين الاشتراكية و القومية ، وبين العروبة والإسلام ، والمرأة والحرية ، ولبنان أخاء بين المسيحية والإسلام . و أحسن ما يقول الرافعي بهدف هذا الكتاب :"ومن خلال أبحاث هذا الكتاب يلاحظ القارئ أننا قمنا بجولة في سوق النظرات – ونحن نحمل الإسلام في صميمنا – ورحنا نلاحظ ما يباينه و يجافيه ، ونظهر ما يواكبه ويجاريه ، ولم نخرج من هذه الجولة بنتيجة محددة ، ولا حملنا القارئ حملا على رأي معين ، أو اعتقاد محدد ، بل تركناه يزاملنا في الطريق ، ليتحقق في النهاية من أن :"الإسلام انطلاق لا جمود " وليكون له في هذه المباحث خير معوان على الهداية والإصابة وحسن التمييز"[٢٩].

٥. **رسائل الرافعي:** يحتوي هذا الكتاب مجموعة رسائل خاصة ،كان يرسلها إلى محمود أبي راية ، فهذا الكتاب خزينة الأدب العربي ، يناقش فيه الرافعي عديدا من الفروعات الأدبية كما وصفه محمود أبو راية وهو يقول : "فإن رسائل الرافعي تمتاز بأن فيها غير ذلك منافع كثيرة من البلاغة واللغة والأدب والشعر وبما تضمنت من طرائق دراسة الأدب العربي عندنا وعند القدماء ، وما هي المصادر و النصوص التى يجب على الأديب أن يدرسها ويستوعبها ، وبما تحمل من آراء قيمة في النقد الأدبي وسبب سقوط الأدب في زماننا ، وأن دراسة اليوم لا وجود لها وأحكام صائبة على الكتاب والشعراء القدماء منهم و المعاصرين ، وقد أظهرت هذه الرسائل الباعث على تأليف كل كتاب من كتبه وقوته في التأليف و الإنشاء واجتهاده في اللغة و النحو وماكان على نية إصداره من كتب ورسائل وفيها رسائل كثيرة جهزت بأضواء من أسرار الإعجاز في كثير من آيات القرآ ن الكريم "[٣٠].

٦. **المساكين** : هذا الكتاب أبرز كتابة الرافعي في النثر الفني[٣١]، كتبه بعد وقوع الحرب العالمية الأولى (١٩١٤م– ١٩١٩م) وما واجهت البلاد من الأوضاع البائسة فتحدث فيه عن بؤس البائسين وآلامهم وعن أراء مختلفة في الفقر والحظ والحب والجمال والخير والشر ، كأنه عارض به كتاب "البؤساء " لفيكتور هيجو، ونشر عام ١٩١٧م[٣٢]. وقد أسند الكلام فيه إلى" الشيخ علي" الذي يصفه الرافعي بأنه :" الجبل الباذخ الأشم في هذه الإنسانية المسكينة التي يتخبطها الفقر بأذاه وجنونه ومسه "[٣٣]. وأورد فيه فصولا أهمها : الفقر والفقير ، ومسكينة ! مسكينة ! ، ولؤم المال ووهم التعاسة ، ووهم الحياة والسعادة ، وسحق اللؤلؤة ، والرجل البخيل ، وفي الحب ، وشهر النحل ، والحظ ، والحرب ، الجمال والحب . وقد لقي هذا الكتاب احتفالاً كبيراً من أهل الأدب حتى يقول أحمد زكي باشا: " لقد جعلت لنا شكسبير كما للإنجليز شكسبير وهيجو كما للفرنسيين هيجو وجوته كما للألمان جوته"[٣٤].

٧. **حديث القمر**: هذا هو أجود كتبه في النثر الشعري[٣٥] ، الذي تفرد فيه الرافعي ، ونشر بعد عودته من رحلة إلى لبنان عام ١٩١٢م، تعرف فيها على شاعرة ،جرى بينه و بينها حديث طويل في الحب فكأنما كان حديث القمر وكأنه اتخذ القمر سميرا له يبثه شكواه وخواطره وهمومه ، يتحدث عن كلها في هذا الكتاب بأسلوب رمزي وأسلوب فني مصنوع ، واستطرد في الحديث فتكلم على البكاء والدموع ، وعن الاستبداد والطغاة ، وعن الغنى والمال ، و عن الشاعر الصحيح ، والزائف ، وغيرذلك من الأمور تتعلق بالأدب العربي كأنه زاد من اللغة ، وخزينة من التعبير الجميل و مادة لتوليد المعاني وتشقيق الكلام في لفظ جزل . وأحيانا وردت فيه أشعار حيث يقول الرافعي في الفصل الثامن من الكتاب بعنون "الشرق المريض"

يا من لهذا المريض المدنف العاني ——— مردد النفس من آن إلى آ ن
إذا رأى الليل ظن القبر شق له ——— وظن أنجمه آثار اكفان
ويحسب الصبح باب الموت لاح له ——— وفوقه الشمس قفل فتحه داني
نضو على رمق فان يعيش به ——— لكنه رمق مهما يعش فاني
مطرح الهم في كل الجهات فما ——— يرى بكل مكان غير أحزان
تؤزه كبد حري معلقة ——— من الأضالع في أعواد نيران

٨. **رسائل الأحزان**: هذا هو مجموعة الرسائل ، كتبها الرافعي في النثر الفني ، ونشره سنة ١٩٢٤ الميلادية[٣٦]، ويزعم بأنها رسائل صديق بعثها إليه فهو يخاطب نفسه على أسلوب التجريد ، فعباراته ملونة جديدة ، ومملوءة بالفلسفة العميقة معبرة صادقة عن مشاعر أحلامه وآلام أحزانه في العشق والزواج .حيث يقول الكاتب في خاتمة الكتاب:" اجتمعت في هذه الرسائل عواطفُ الحب تتساوق معانيها دون حوادثها على نسق الشعر والفكرة ،لا على سرد التاريخ والرواية، إذ لم يكن الغرض منها حكاية نفسين بل صفة نفس صريحة لنفس معقدة ، فلما ضممت ألفتها وهيأتها للطبع أدرتُ الرأي فيما أرضاه منها وما لا أرضاه وما زلتُ بها على ما يختلط فيها من الحب والبغض حتى خرجت كما يخرج الماء الصافي من الماء الكدر وجاءت كما ترى نَقِية ليلُها كنهارها "[٣٧] . وفي الكتاب خمسة عشر رسالة يتخلل بعضها أشعار متفرقة ، فتحشد الرسالة الثالثة والخامسة أشعار بأسرهما . ومن نماذج هذه الأشعار ما يقول في نهاية المطاف [٣٨] :

آه من الدنيا ومن ——— قدر على الدنيا حكم

البغض شيئ مؤلم ——— والحب شيئ كالألم

٩. **السحاب الأحمر**: هذا هو نوع آخر من كتابة الرافعي في النثر الفني ، ألفه بعد رسائل الأحزان[٣٩]، ففي رسائل الأحزان حاول الرافعي أن يخبر صاحبته من حاله ما أراد ، فأغراها بالترفع والدلال ، وفي هذا الكتاب سعى أن يعلمها أنه قد فرغ من أمرها وهي فرغت من أمره ، فما لها عنده إلا البغض والإهمال ، وما له عندها إلا اللهفة على ماكان من أيامه[٤٠]، فهذا الكتاب يتمحور حول فلسفة البغض ، وطيش القلب ، ولؤم المرأة . وفي الكتاب تسعة فصول بعناوين شتي كالقمر الطالع ، والنجمة الهاوية ، والسجين ، والربيطة ، والمنافق ، والصغيران ، والشيخ علي ، والشيخ أحمد ، والشيخ محمد عبده . فهذا الكتاب درة من درر النثر العربي أورد فيه الكاتب عبارات عذبة جذابة جالبة إلى مزيد القراءة ، وإلى خاتمة المطاف ، حيث يقول الكاتب تحت عنوان 'القمر الطالع': " وغُصتُ في هذه النفس أفكر فيما رأيت وأنا أمسك على قلبي أن يطير ، فإذا "السحاب الأحمر " يمطر على مطرة من الخواطر والكلمات يتلاحق منها طرف بعد طرف ، وتقبل طائفة وراء طائفة : كأن متكلما يتحدث بها في نفسي ، أو كأنه وحي يوحى من ملك الجمال : فأسرعت أدونها و أحصيها تحت عيني تلك الصورة الجميلة المشرقة عليّ ، حتى امتلأ البياض سواداً ، واستفاضت روح الحبر الأسود بالهمّ ، على صدوع القلب وعلى شعابه "[٤١].

١٠. أوراق الورد : هذا الكتاب أيضا أجمل كتابة الرافعي النثرية الفنية ، وهو مجموعة من الرسائل في فلسفة الحب و الجمال ، التي كان يناجيها بها في خلوته ويتحدث بها إلى نفسه . ولم يرسلها إليها بالبريد ، إلا رسالتين أو ثلاثة مما في أوراق الورد ، فلما أتم تأليفها وعقد عقدتها بعث بها إليها في كتاب مطبوع بعد سبع سنين من تاريخ الفراق . وأنشأه بعد كتابته " رسائل الأحزان " و " السحاب الأحمر" عندما هدأت ثائرته بعد عنفوان الهجر والقطيعة التي كانت في كتابيه السابقين المذكورين [٤٢]. وفيه عدة رسائل بعناوين مختلفة كزجاجة عطر ، و القمر ، وصلاة في المحراب الأخضر ، و قال القمر ، و طفولة فلسفية ، و قياس الأشياء في الحب ، و البربرية ، و رسالة الطيف ، وألم الحب ،و في العتاب ، و وهم الجمال ، وغيرها من الرسائل التي تتحدث عن خواطر النفس المنثورة في فلسفة الحب والهيام والجمال . و أحسن نماذج من هذه الرسائل رسالة بعنوان "زجاجة عطر" يقول فيها الرافعي : "يا زجاجة العطر :اذهبي إليها وتعطري بمس يديها وكوني رسالة قلبي لديها———

وها أنذا أنثر القبلات على جوانبك ، فمتى لمستك فضعي قبلتي على بنانها ، وألقيها خفية ظاهرة في مثل حنو نظرتها وحنانها، والمسيها من تلك القبلات معاني افراحها في قلبي ومعاني أشجانها———

وها أنذا اصافحك فمتى أخذتك في يدها فكوني لمسة الأشواق ..وها أنذا أضمك إلى قلبي فمتى فتحتك فانثري عليها في معاني العطر لمسات العناق———".

المحور الثالث: موقف الرافعي من النقد الأدب العربي الحديث

النقد الأدبي هو تقييم النص والحكم عليه أديبا وفنيا مع مراعاة الأسلوب المتبع[٤٣]، و أن الرافعي ساق قلمه الحاد إلى هذا الميدان ، فكان ناقدا عنيفا ، معتدا بنفسه ، ومتمسكا بلغته العربية . و كان يرى أن الدين واللغة لا ينفصلان ، فهما كالبناء الواحد . و كانت له معارك كثيرة في هذا المجال مع بعض الأدباء كالعقاد وطه حسين ، فكتب كثيرا من المقالات النقدية ، التي تنشر عندئذ في المجلات الأدبية المختلفة ، حتى اجتمعت في كتابين ؛ تحت راية القرآن و على السفود ، الآن نحن نلاحظ إلى هذين الكتابين :

١. **تحت راية القرآن** : هذا الكتاب من أجمل كتابته النقدية ، وهو في الأصل مجموعة مقالات كان ينشرها في الصحف والمجلات من خلال ١٩٠٨م – ١٩٢٦ م ، وبعد ذلك جمعها الرافعي في هذا الكتاب فنشر سنة ١٩٢٦الميلادية عقب ظهور كتاب طه حسين "في الشعر الجاهلي "[٤٤]. تحدث الكاتب فيه عن فكرتين أساسيتين ؛ الأولى : الخصومة بين المذهبين الأدبيين : القديم والحديث، و الثانية : انتقاش في غلطات المجددين خاصة بنقض آراء الدكتور طه حسين الذي أثبتها في كتابه " الشعر الجاهلي" . فحمل لواء المحافظين اللغة العربية مدافعا بشدة حيث يقول : "إن هذه العربية لغة دين قائم على أصل خالد هو القرآن الكريم ، و قد أجمع الأولون والآخرون على إعجازه بفصاحته ، إلا من لاحفل به من زندق يتجاهل أو جاهل يتزندق . فإذا كان المعجز في لغة من اللغات بإجماع علمائها وأدبائها هو من قديمها خاصة ، فهل يكون الجديد فيها كمالا يسمو أم نقصا يتدلى؟--- "[٤٥].

٢. **على السفود** : هذا من أبرز كتب الرافعي في النقد الأدبي ، فكان الرافعي حاقدا ناقما فيه ، حيث ينحرف أحيانا عن الجدل المنطقي الرصين والبحث العلمي ، ونقده يشبه هجاء الكتّاب الاقدمين[٤٦]. يحشد سبع مقالات تهدف هجاء عباس محمود العقاد ، و تنشر في" مجلة العصور" بعنوان " على السفود" ،فجمعها الأستاذ إسماعيل مظهر فى هذا الكتاب ولم يكتب على غلافه اسم المولف ، بل رمز إليه بكلمة " بقلم إمام من أئمة الأدب العربي ".[٤٧] فالسفود هي الحديدة ، يشوي بها اللحم ، وقد استعيرت هذه الكلمة في النقد ، فينتقد أي رجل أو شيئ كانه يفرشه نارا كنارااللحم يشوي عليها ، والعقاد "مسفَّد" في هذا الكتاب[٤٨] . نقده الرافعي بكلمات جارحة وعبارات قاسية وأساليب هجائية حيث أنه يقول : " ويدعى العقاد أنه إمام في الأدب ، فخذ معنا في تحليله : أما اللغة فهو من أجهل الناس بها و بعلومها ، وقلما تخلومقالة له من لحن ، وأسلوبه الكتابي أحمق مثله ، فهو مضطرب مختل ، لا بلاغة فيه ، وليست له قيمة --- "[٤٩]. وقد عنّى لكل مقالة عنوانا فسبعة عناوين هي: عباس محمود العقاد ، وعضلات من شواميط ، وجبار الذهن المضحك ، و مفتاح نفسه وقفل نفسه ، و العقاد اللص ، والفيلسوف ، وذبابة !! لكن من طراز زبلن . وقدم الرافعي بين يدي كل مقالة بيتين من الشعر ، ناطقين بما تحتوي المقالة من نقد مرحق حيث يقول :

وللسفُّود نارٌ لو تَلقَّتْ – بجاحمها حديداً ظن شَحما

ويَشوي الصخرَ يتركُه رَماداً – فكيفَ وقد رميتكَ فيه لَحما ؟!

وفي خاتمة المطاف نود أن نسجل بعض الملاحظة الهامة التي تتمخض من خلال هذه الدراسة :

١. إن الرافعي نشأ في بيئة علمية إسلامية فتثقف من العلماء البارزين والأعلام الإسلاميين.

٢. و يتجه معجم كتاباته الأدبية إلى الفكرة الإسلامية و الحمية الدينية والحفاظ على اللغة العربية.

٣. تحدث الكاتب في اكثر مولَّفاته عن كثير من الأمور الاجتماعية ، وعن عديد من المشاكل العالمية الراهنة ، ثم حاول أن يرجح التشريعات الربانية لحل تلك المشاكل على الأفكار المادية الانسانية.

٤. ولا يُشاهد تقليد الوزن والقافية في كتاباته ، بل تظهر فيها محاولته المستمرة لتجريد النثر من قيوده التي فرضها الأدباء المعاصرين من السجع والمحسنات اللفظية والزخارف البيانية.

٥. وتمتاز كتاباته برشاقة اللفظ وشهولته وحسن النظم وعذوبته ووضوح المعاني.

٦. وإن كتابته في النقد الأدبي إنما هو في الحفاظ علي اللغة العربية و الإسلام.

٧. فإنه قد أضفى على الأدب حياة جديدة ، فهو– لا شك – معلم الشعر بما قرض من القصائد والأناشيد، وهو معلم الأدب بما جمع من معارف وثقافات،وبما ضمن كتابته من نقاش ، وبما تفوق في النقد والبلاغة من أساليبه الرائعة ، وبما أثرى به المكتبات الأدبية من آرائه الثمينة و إسهاماته القيمة.

المراجع :

---

١. يونس , الدكتور مصطفى محمود , **من أدبنا المعاصر**, مصر , ١٩٨٢م ص ٢١١.
٢. العباسي , نجاة محمد عبد الماجد , **الجانب الديني في أدب الرافعي** , بحث مقدم لدرجة الماجستير في الأدب العربي , كلية اللغة العربية , جامعة أم القرى بمكة المكرمة , ١٩٨٢م ص ٥٥.
٣. الرافعي , مقدمة **'المساكين'** , القاهرة : دار الصحوة ,٢٠١٠ م , ص ١١ .
٤. خفاجي , الدكتور محمد عبد المنعم , **قصة الأدب في مصر** , بيروت : دار الجيل ١٩٩٢ م , ج ٥ , ص ٧١.
٥. العباسي , **الجانب الديني في أدب الرافعي** , المرجع السابق , ص٥٦ .
٦. ضيف , **الأدب العربي المعاصر في مصر** , القاهرة : دار المعارف ١٩٦١ م , ص ٢٤٣ .
٧. الرافعي , **ديوان الرافعي** , مطبعة الجامعة الإسكندرية , ١٣٢٢ هجرية , ج ١ , ص ٢٢,
٨. العباسي , **الجانب الديني في أدب الرافعي** ,المرجع السابق , ص ٥٧ .
٩. الرافعي , **ديوان الرافعي** , المرجع السابق , ج-٢, ص٢٠ و٢١ .
١٠. العباسي , **الجانب الديني في أدب الرافعي** , المرجع السابق , ص٥٧ .
١١. ضيف , **الأدب العربي المعاصر في مصر** , المرجع السابق , ص ٢٤٣ .
١٢. العباسي , **الجانب الديني في أدب الرافعي** , المرجع السابق , ص٦٠ .

١٣ . الرافعي , **النشيد المصري الوطني** , مصر : المكتبة الأهلية , ١٩٩٢, م ص١٥ .
١٤ . الرافعي , مقدمة 'على السفود', دمشق , ٢٠٠٠ م , ص ١٢ .
١٥ . الرافعي , مقدمة'على السفود' , المرجع السابق , ص ١٢ .
١٦ . الرافعي , مقدمة'على السفود' ,المرجع نفسه , ص ١٣ .
١٧ . هيكل , الدكتور أحمد , **تطور الأدب الحديث في مصر** , القاهرة : دار المعارف , ١٩٩٤ م ص٣٨٧ .
١٨ . هيكل , المرجع السابق ص- ٣٨٨ .
١٩. Cachia Pierre, **Arabic Literature An Overview**, New York, 2002 P.37; Haywood, J. A. **Modern Arabic Literature** (1800-1970), London :Lund Humphries, 1971, P -102.
٢٠ . الرافعي , **تاريخ آداب العرب** , بيروت : دار الكتب العلمية ,٢٠٠٠ م ,ج٣ , ص ٣ .
٢١ . ضيف , **الأدب العربي المعاصر في مصر**, المرجع السابق , ص٢٤٣ .
٢٢ . الرافعي , **تاريخ آداب العرب** , المرجع السابق ,ج ٣ , ص ٨ .
٢٣ . سعيد العريان , **حياة الرافعي** , القاهرة : مطبعة الاستقامة , ١٩٥٠م , ص ٣٥١ .
٢٤ . العباسي , **الجانب الديني في أدب الرافعي** , المرجع السابق , ص٩٣ .
٢٥ . الرافعي , **وحي القلم** , بيروت : المكتبة العصرية , ج ١ ص ٧ .
٢٦ . الرافعي , **إعجاز القرآن والبلاغة النبوية** , بيروت : دار الكتاب العربي , ٢٠٠٥ م ص ٧ .
٢٧ . الرافعي , المرجع السابق , ص٩٨ .
٢٨ . الرافعي , المرجع نفسه ,ص ١٩٤ و ١٩٥.
٢٩ . الرافعي, **الإسلام انطلاق لاجمود** , القاهرة : دار التحرير , ٢٠٠١ م ص ٦ .
٣٠ . الرافعي , مقدمة 'رسائل الرافعي' دار العمرية , بدون تاريخ , ص ٥ .
٣١. النثر الفني ' وهو أدب يتأنى كاتبه فيه و يتخير ألفاظه , ويعتني بصوغ جمله , ويراعي فيه احتوائه على مقومات الفن , كجمال التعبير , و قوة التأثير . التونجي , الدكتو محمد , **لمعجم المفصل في الأدب** , بيروت : دار الكتب العلمية ,١٩٩٣ م ص ٨٤٩.
٣٢ . ضيف , **الأدب العربي المعاصر في مصر** , المرجع السابق , ص ٢٤٤,
٣٣ . الرافعي, **المساكين** , المرجع السابق , ص ٥٩,
٣٤ . الرافعي, المرجع السابق , ص٢٥ .
٣٥ . 'النثر الشعري 'وهو الذي يكثر فيه كاتبه من الصور والتشابيه .التونجي , **المعجم المفصل في الأدب** , المرجع السابق , ص.٨٤٩
٣٦ . ضيف , **الأدب العربي المعاصر في مصر** , المرجع السابق , ص ٢٤٤ .
٣٧ . الرافعي , **رسائل الأحزان في فلسفة الحب والجمال** , مصر : مطبعة الهلال , ١٩٢٤م, ص٧٤ .
٣٨ . الرافعي, المرجع السابق , ص ٧٦ .
٣٩ . العباسي , **الجانب الديني في أدب الرافعي** , المرجع السابق , ص ٩٨ .
٤٠ . الرافعي , مقدمة 'السحاب الأحمر' بيروت : دار الكتب العلمية , ٢٠٠٢ م , ص ١٠ .
٤١ . الرافعي , **السحاب الأحمر** , المرجع السابق , ص ١٩.
٤٢. العباسي , **الجانب الديني في أدب الرافعي** ,المرجع السابق , ص ٩٩ .
٤٣. التونجي , الدكتور محمد, **المعجم المفصل في الأدب** , بيروت : دار الكتب العلمية ,١٩٩٣ م ص ٨٦٤.
٤٤. ضيف , **الأدب العربي المعاصر في مصر** , المرجع السابق , ص ٢٤٤.
٤٥ . الرافعي , **تحت راية القرآن** , بيروت : المكتبة العصرية ٢٠٠٢ م, ص ١٦.
٤٦ . ضيف , **الأدب العربي المعاصر في مصر** , المرجع السابق ,ص٢٤٤ .
٤٧ . سعيد العريان , **حياة الرافعي** ,المرجع السابق , ص٣٥١ .
٤٨ . الرافعي , **على السفود** , المرجع السابق , ص ٥٣.
٤٩ . الرافعي , **على السفود** , المرجع السابق , ص٦٦ .